



من أخلاق الداعية



سلمان بن فهد العودة
By: Alsheikh Salman Al-Odda

IIASA
معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا

The Personal Qualities of an Islamic Da'ya

من أخـلاق الداعيـة

تأليـف

سلمان بن فهد العودة

من أخلاق الداعية



بسم الله الرحمن الرحيم

● **هذه الصحوة منّا، ونحن منها، عزّها عزنا، ونصرها نصرنا، ونحن أسعد الناس بها!**

وليس يجوز لقادر أن تكون مشاركته «الفرح» فحسب، بل نريده «**فرحًا**» **إيجابيًّا يتحول إلى كلمة بنّاءة، أو نصيحة هادفة، أو لفتة موفقة.**

وليس ترشيد الصحوة أمرًا مما يطيقه الآحاد من الناس، بل هو مسئولية الجميع.

فإلى المشاركة الإيجابية الجادة في هذه السلسلة المباركة قبل أن يفوت الركب، وتطير الطيور بأرزاقها!

المؤلف

السعودية ـ القصيم ـ بريدة
ص ب ٢٧٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ بدون مقدمات:

كان من صحيح دعائه ﷺ:

«اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت». مسلم ١/٥٣٥.

* * *

«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء». الترمذي ٥/٥٣٦.

* * *

«اللهم حسنت خَلْقِي فحسن خُلُقِي». أحمد ١/٤٠٣، ٦/٦٨، ١٥٥.

* * *

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم والقسوة، والغفلة والعيلة، والذلة

والمسكنــة، وأعـوذ بك من الفقــر والكفـر، والفسـوق والشقـاق والنفـاق، والسمعـة والـرياء، وأعوذ بك من الصمم والبكم، والجنــون والجـذام، والـبرص وسيىء الأسقام». المستدرك ١/ ٥٣٠، ٥٣١.

٢ ـ لأتمم مكارم الأخلاق:

تتبـوأ الأخـلاق في الإسلام موقعًا من أعظم المواقع، حتى لقد صحّ عنه ﷺ، أنه قال: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»

وفي لفظ: «مكارم الأخلاق»(١).

فكأنه ﷺ، حصر المهمة التي بعث لها في هذا الأمر.. ولا غرابة

* فإن نحن فهمنا «الأخلاق» على أنها تعامل العبد مع الله ومع الناس فالأمر واضح، وهذا هو الدين كله،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٨١)، ومالك بلاغًا (٢/ ٩٠٤)، والبزار كما في المجمع (٩/ ١٥) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وقال ابن عبدالبر: وهو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

كيف تتعامل مع الخالق؟ كيف تعبده وتوحده وتتجنب ما يسخطه؟ وكيف تتعامل مع المخلوق؟ ويدخل في ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأقربون ممن لهم حقوق الحب والود، كما يدخل فيه الصنف الآخر من الشياطين والكفار والفساق والمنافقين ممن يبغضهم الإنسان في ذات الله كالكفار، أو يبغضهم من جانبٍ واحد كالفساق الذين يكون فيهم أصل الإيمان بالله ورسله.

* أما إن فهمنا «الأخلاق» بمعنى أخص، وأنها التعامل مع الناس فحسب فالحديث إذن محمول على بيان عظم فضل الأخلاق، وعلو مكانتها في الدين، فهو كحديث: «الحج عرفة»[1]، وحديث: «الدين النصيحة»[2].

---

(١) رواه الترمذي ٨٨٩)، وأبو داود (١٩٤٩) والنسائي (٣٠٤٤)، وابن ماجه (٣٠١٥) والدارمي وغيره. . جميعهم عن عبدالرحمن بن يعمر الديلي.

(٢) رواه مسلم (٥٥) وأبو داود (٤٩٤٤) والنسائي (٤١٩٧ - ٤١٩٨) من حديث تميم الداري.

إذ ليس المقصود حصر الحج في عرفة، ولا حصر الدين كله في النصيحة إنما المقصود أن الوقوف بعرفة أعظم أركان الحج، وأن للنصيحة مرتبة عالية في الدين.

فلا إشكال في الحديث على المعنيين، وكلاهما له دلالة قوية على عظم شأن الخلق في الإسلام.

* * *

٣ ـ مسلم.. وداعية:

من هذا المنطلق وجب على المسلم التحلّي والتجمل بالخلق الحسن، سواء كان داعية أم غير داعية، إذ الأخلاق من مقاصد البعثة المحمدية التي أكرم الله بها الإنسان في الأرض كلها، وخصّ المؤمنين بخصيصة منها ليست لسواهم، حيث هداهم بها إلى الصراط المستقيم، وزكى نفوسهم، وعلّمهم مالم يكونوا يعلمون: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويزكّيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾. (سورة الجمعة، الآية: ٢).

= والترمذي (١٩٢٦) والنسائي (٤١٩٩ ـ ٤٢٠٠) من حديث أبي هريرة.

والتزكية المذكورة في الآية الكريمة تشمل تزكية النفس وتربيتها على معالي الأخلاق، وتنقيتها من رديئها.. ففي الآية هذه كما في الحديث السابق تبدو الأخلاق مقصدًا من مقاصد البعثة المحمدية، بل من أبرز مقاصدها.

وإذا كان التحلي بالخلق الفاضل واجبًا على آحاد المسلمين.. فما بالك بالداعية الذي يحمل راية الدعوة وشعارها.. وينادي بها بين الناس؟

إن الأنظار إليه أسرع، والخطأ منه أوقع، والنقد عليه أشد، ودعوته يجب أن تكون بحاله قبل مقاله.

ولذلك فتخلقه بالخلق الكريم أوجب وألزم، قيامًا بحقّ ما جعل الله على كاهله من الأعباء الجسام.. كما قال الشاعر:

شكرًا لفضلك إذ حملت كاهلنا
مما وثقت بنا ما كان من نوب!

وحماية للدعوة وأهلها من ألسنة المغرضين، وأقلام الخصوم الشانئين، وأوهام الغفل والمتعجلين!

* * *

٤ ـ وهذه منها:

لو أردت أن أتحدث عن الأخلاق كلّها لطال المقام ولم أصنع شيئًا وبين يدي مجموعة كبيرة من المصنفات في الأخلاق، منها: «**أخلاق النبي**» لأبي الشيخ الأصبهاني، «مكارم الأخلاق» للطبراني، وللخرائطي، «**الأخلاق والسير**» لابن حزم، «**دستور الأخلاق في القرآن**» لمحمد عبدالله دراز.. الخ.

وهذه الرسالة ـ أخي الكريم ـ ليست بحثًا في الأخلاق وفلسفتها. وإنما هي عرض لمجموعة من الفضائل الخُلقية **التي شعرت بأهميتها العظمى للداعية مع كثرة النصوص فيها، وإنما أتحدث فيها عن جوانب مهمة، وأترك غيرها** مما هو متوفر في المصادر العلمية لمن أراده.

أولا: الصدق

﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾. (التوبة، الآية: ١١٩).

يفهم كثيرون الصدق على أنه صدق اللسان في الأقوال فحسب، **والحقّ أن الصدق منهج عام**، وسمة من سمات شخصية المسلم في ظاهره وباطنه، وقوله وفعله، ومن ذلك:

أ - الصدق في حمل الدين:

بأن يكون تدين المرء تدينًا صحيحًا مبنيًا على الصدق مع الله عز وجل، لا على النفاق والكذب والمجاملة، ولذلك يطلق الصدق في القرآن الكريم في مقابل النفاق: **﴿ليجزيَ الله الصادقين بصدقهم، ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾.** (الأحزاب، الآية: ٢٤).

فلابد من الإسلام الظاهر مع الإيمان الباطن، لابد من حسن الاعتقاد بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

فالهدي الظاهر لابد أن يكون متوافقًا مع الهدي لباطن.

* وهنا كمين من كمائن الشيطان يوحي للداعية بترك بعض الأعمال الصالحة الظاهرة بحجة أن باطنه ليس كذلك.. فلا تفعل هذا لئلّا ينخدع الناس بك!: وهذا خطأ كبير.

بل العمل الصالح الذي تزاوله بجوارحك هو من أسباب صلاح قلبك وصدقه، ما دمت لم تعمله رياءً ولا سمعة ولا على سبيل خداع المؤمنين.

ب ـ الصدق في الأقوال:

والصدق في القول تعبير عن شخصية واضحة، ومروءة وشهامة وكرم، ولا يلجأ للكذب إلا لئيم الطبع، خبيث النفس، ضعيف الشخصية، والفطرة السليمة تستعيب الكذب وتستقبحه، ولذلك أجمعت الديانات السماوية على تحريمه وتجريمه..

فما بالك بالداعية.. أتراه يتصور صدور الكذب منه؟!

أعتقد ـ إن شاءالله ـ أن: لا.

ولكن:

من الـدعاة من يتوسع في «**التورية**» بأن يقول كلامًا يفهمه الناس على خلاف ما يقصد، وقد يكتشفون بعد أن الواقع على خلاف ما فهموه منه فيتهمونه بالكذب.. ثم إن التـوسـع في التـورية قد يؤدي **إلى التسامح في بعض «الكذيبات» بحجة أنها للمصلحة!! فالحذر الحذر!**

* **أيها الداعية**: حين يلجؤك الموقف إلى الكذب **فلا** تقدم عليه، وتذكر كلمة «أبي سفيان» أمام هرقل حين سأله عن رسول الله ﷺ، فقال:

والله لولا أن يأثروا عنّي كذبًا لكذبت![1].

لقـد تجنب هذا الـرجـل ـ وكان جاهليًّا ـ أن يكذب خشية أن ينقلوها عنه، أو يعيّروه بها يومًا من الدهر، مع شدة حاجته إليها. **ونحن نعلم أن أعراض الدعاة اليوم أصبحت هدفًا لسهام كثيرة، ولذا يتعين على الداعية أن يغلق الباب الذي تأتيه منه الريح، ليريح ويستريح!**

---

(١) رواه البخاري (٧).

جـ - الصدق في الأعمال:

وهو يعني أن تكون أعمال الإنسان خالصة لوجه الله تعالى من الرياء والسمعة ﴿فمن كان يرجو لقاءَ ربّه فليعمل عملاً صالحًا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾ (سورة الكهف، الآية: ١١٠). ﴿ليبلوكم أيكّم أحسن عملاً﴾ [سورة الملك، الآية: ٢].

قال الفضيل بن عياض: أيكم أحسن عملاً، أي: أخلصه وأصوبه.

قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، لا يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا!

ومن الصدق في الأعمال: الوضوح وتجنب الغموض والتلبيس.

روى أبو داود والنسائي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء بعبدالله بن سعد بن أبي السرح وقد أهدرَ رسول الله ﷺ، دمه حتى أوقفه على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله! بايع عبدالله.

فرفع رسول الله ﷺ، رأسه فنظر إليه ثلاثًا، كلّ ذلك

يأبى أن يبايعه، ثم بايعه بعد الثلاث، ثم أقبل رسول الله ﷺ، على أصحابه فقال: **«أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟!»**.

فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ قال عليه الصلاة والسلام: **«إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين!!»**[1].

إلى هذا الحد كان مدى «الصدق» في أعمال النبي ﷺ، لم يرض أن يقتل عدوه اللدود الذي كان أهدر دمه بطريقة غامضة عن طريق الإيماء بطرف العين!! وكان هذا دأبه وديدنه طيلة حياته ﷺ، ولذلك لم يستطع المشركون في بداية الدعوة أن يتهموه بالكذب، بل قالوا: شاعر.. ساحر.. مجنون.. ولم يصدقهم الناس، وعندما فقدوا صوابهم وأعيتهم الحيل صرخوا: كذاب.. ولكن هيهات أن يصدقهم الناس!

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٨٣) والنسائي (٤٠٦٧) والحاكم (٣/٤٥) وله شاهد عند أبي داود (٣٠٩٤) وأحمد (٣/١٥١) من حديث أنس ولفظه «إنه ليس لنبي أن يومض». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٧٢٣).

وروى الترمذي عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم النبي ﷺ، المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتُّ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا والناس نيام.تدخلوا الجنة بسلام»[1]

لقد سرى صدق رسول الله ﷺ، من القلب إلى اللسان.. إلى الجوارح وتجلى على محيا وجهه الكريم.. فكل من نظر إلى طلعته وإشراقها وصفائها قرأ فيها الصدق وعرف أن وجهه ليس بوجه كذاب!.

نحن نحتاج إلى نمط من الدعاة آثروا الصدق في أقوالهم وأفعالهم حتى أصبح الصدق سجية تجري في عروقهم، وتطلّ من طلعات وجوههم، فإذا رآهم الناس قالوا: هذه ليست بوجوه كذابين!.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٤٥١) والترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجه (٣٢٥١).

كما نحن بحاجة إلى دعاة يتجملون بالخلق الكريم، ويتأبون على الإثارة والاستفزاز فيحتفظون بهدوئهم واعتدال منطقهم في سائر الأحوال حتى إذا أبصر الناس منهم هذا هتفوا: **هذه أخلاق أنبياء!**

* **إنّ صدقنا في حمل دعوتنا هو الذي يجعل الناس** يتقبلون ديننا، وليس يليق بنا أن نكون كالممثل على المسرح، يظهر للناس بهيئة خلاف حقيقته، فمثل هذا سرعان ما ينكشف أمره، ويعرض الناس عنه.

نقل عن بعض السلف أنه كان إذا وعظ أبكى الناس، حتى تختلط الأصوات ويعلو النحيب، وقد يتكلم في المجلس من هو أغزر منه علمًا، وأجود منه عبارة، فلا تتحرك القلوب ولا يبكي أحد!

فسأله ابنه يومًا عن هذا، فقال: يا بني لا تستوي النائحة الثكلى والنائحة المستأجرة!

إذن فالوسيلة الأولى لنجاح الداعية هي: صدقه في حمل دعوته، وجديته في ذلك، وأن يكون الصدق في الأقوال والأعمال منهجه وشعاره. ليس المهم هو الكلمات المنمقة المعسولة ـ وإن كانت مطلوبة ـ إنما الأهم من ذلك

لصدق، وأن يكون الإنسان منسجمًا مع نفسه، وأن يكون حديثه عن معاناة، وقديمًا قيل:

الكلمــة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب..
إذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان!!

* * *

ثانيا: الصبر

الصبر قرين اليقين ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدُون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ (سورة السجدة، الآية ٢٤).

ولذلك قال سفيان: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

والذي لا يصبر فإنه من السهل أن ينخلع عن دينه لأي شيء يعترض طريقه، ومن السهل أن يتخلى عن منهجه وحكمته لأي استفزاز. ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فاصبر إنّ وعد الله حقّ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ (سورة الروم، الآية ٦٠). وقال: ﴿واصبر على ما يقولون، واهجرهم هجرًا جميلًا﴾ (سورة المزمل، الآية: ١٠).

كثيرًا ما يقف الضالون في وجه الدعاة إلى الله عز وجل، يقولون لهم: إن ما تدعون إليه ضرب من الخيال لا يمكن أن يتحقق في الواقع، أنتم تدعون إلى أمور عفا عليها الزمن، ونسيها الناس أو كادوا، فينبغي أن ترضوا بما هو دون ذلك، وأن تراجعوا آراءكم واجتهاداتكم!!

وأمام ضغوط الواقع القائم، وأمام العقبات الحقيقية والوهمية في وجه تحقيق الإسلام، وأمام طول الطريق.. **قد يستجيب بعض الدعاة ويتأثر، ويبدأ في إعادة النظر في فهمه للإسلام**، وفيما يقوله الخصوم!

ويا ليته إذ يفعل ذلك يفعله بروح الباحث المتجرد الشجاع المتطلع إلى الحق أين كان.. **إذن لهان الخطب!**

لكنه يفعله بروح «المنهزم» الذي يحسّ بأنه خرج من المعركة أسيرًا أو كسيرًا.. فهو يبحث في «**عروض**» القوم من «حل» يجنبه المعركة مع الباطل.. مع الواقع المنحرف.

* وهذا مثل:

الربا الذي انتشر، وضرب أطنابه، ومد رواقه، وقامت عليه اقتصاديات العالم كله - **بما فيه العالم الإسلامي** - وكاد أن يدخل جيب كل أحد حتى تحققت فيه نبوءة النبي ﷺ، حين قال: «**يأتي على الناس زمان من لم يأكل الربا أصابه من غباره**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٩٤) وأبو داود (٣٣٣١) والنسائي (٤٤٥٥) وابن ماجه (٢٢٧٨) وقد أعله المنذري في مختصر

وهـذا الحـديث وإن كان فيه ضعف، إلا أنـه يشهد لصحة معناه قوله ﷺ فيما رواه البخاري: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أكل، أمن الحلال أم من الحرام»[٢].

هذا الحـرام المستقـر في نفـوس الكثيرين وجيوبهم ومؤسسـاتهم وأمـوالهم بدلاً من أن يسعى الـداعيـة لنهي النـاس عنـه، والبحث عن البـدائل الشرعية الصحيحة لتنمية أمـوال النـاس واستثـمارهـا، وإقامة بناء الاقتصاد الإسلامي السليم. يأتيه الذين لا يوقنون فيحاولون أن يستخفوه ليعيد النظر في صور من صور الربا الصريح.. وأن لها مخرجًـا فقهيًا ولو ضعيفًا أو شاذًا! وهكذا يصبح «واقع الناس» في فترة من الزمان محدودة مرجعًا لتعديل بعض الأحكام الشرعية المستقرة عبر القرون!

إنه فقدان الصبر في نفوس بعض الدعاة، ومع فقدانه فقدان الأمل!

أعـلّل الـنـفس بالآمـال أرقـبـهـا
ما أضيق الـعيش لولا فسحـة الأمـل!

= السنن ٥/٨ بالانقطاع بين الحسن وأبي هريرة.

(١) رواه البخاري (٢٠٥٩) والنسائي (٤٤٥٤).

ويا ليت الداعية ينصت لذلك الناصح الذي قال للخليل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيع!

أنت لست مطالبًا بتحقيق نصر واقع للإسلام، فهذا أمره إلى الله متى شاء أن يحدث حدث، لكنك مطالب ببذل جهدك في هذا السبيل فحسب! والرسل والأنبياء كانوا يخاطبون بذلك: ﴿إنْ عليك إلا البلاغ﴾ (سورة الشورى، الآية: ٤٨).

وكانوا يقولون: ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ (سورة يس، الآية: ١٧).

وقد يأتي أحدهم إلى بعض الدعاة ويقول له: أنت تعمل أعمالًا جبارة، وتواصل كلال الليل بكلال النهار، لكن النتيجة في النهاية قليلة، فالناس ينفضون من حولك، وأنت ترى وسائل الهدم والتخريب قد استحوذت على الكثير منهم. وأصبحت تفسد في ساعة ما يبنيه الداعية في سنة! و:

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟؟

وهذا المنطق قد يؤثر على كثير ممن لم يعتادوا على عقبات الطريق.

وهنا يأتي دور «الصبر» الصبر الجميل.

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ، وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله! ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟

فقعد ﷺ، وهو محمرٌّ وجهه، وقال: «**لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحمٍ أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع الميشار على مفرق رأسه فيشقّ باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه.. ولكنكم تستعجلون!**»[1].

فالعجلة في قطف ثمار الدعوة ونتائجها لا تتناسب مع الصبر الذي يجب أن يتحلى به الداعية.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٢) وأبو داود (٢٦٤٩) ورواه النسائي مختصرًا (٥٣٢٠).

قد يكون الداعية في موقع من المواقع (بلد، مدرسة، مؤسسة، . .) يجاهد في ردّ المنكرات ونشر الدعوة، ويحدث على يديه خير كثير، لكنه لا يحسُّ به لأنه يجيء بصورة تدريجية. . كما لا يحسّ الأب بنمو طفله الذي يراه صباح مساء! لأنه يكبر شيئًا فشيئًا!

وكم من داعية تخلى عن موقع من المواقع ظانًا أنه ليس له أثر، فلما تخلى بان فقده، وظهرت مكانته، فكان كما قيل:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وكان كالكسعي[1] الذي يصنع السهام ويرمي بها في الليل، ويظن أنها لم تصب ما أراد. . فكسر القوس، فلما أصبح رأى أنها قد أصابت فندم على كسرها. . وصار يضرب به المثل في الندم، حتى قال الفرزدق حين طلق زوجته:

---

(١) هو محارب بن حفصة بن قيس عيلان من عدنان جد جاهلي. انظر الأعلام للزركلي (٥/ ٢٨١).

ندمــت ندامــة الــكــســعــي لّما
غدت مني مطلقــة نوارُ![1]

فعلى الداعية ألا يستعجل النتائج والثمرات، بل يسعى ويعتمد على الله تعالى، ويدرك أنه بمنطق التجربة المقطوع بها من الناحية التاريخية، ومن الناحية الواقعية، أن أي جهد صحيح يبذل في الأمة يكون له ثمرة، إذ لم **يقع في هذه الأمة أن أحدًا دعا فلم يستجب له، أو نصح** فلم ينتصح بأمره ونهيه أحد، أو عالمًا جلس للتعليم فلم يقعد إليه أحد. إلا أن يؤتى من قبل نفسه، بل كل داعٍ يجد من يستجيب له، إذ لم تصل الأمور إلى ما أخبر به النبي ﷺ، **من الشحّ المطاع، والهوى المتّبع، والدنيا المؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه**، لم يحدث هذا على مستوى الأمة كلها قط، قد يقع في فرد أو أفراد أو جهة لكن الأمة فيها خير كثير، **ولا يزال عند الناس استجابة وقبول للدعوة، وإصغاء لصوت الناصح، إذا تكلم بعلم وحكمة**.

---

(١) انظر القصة في الفاخر (٩٠ ـ ٩١) الزاهر (٢/١٩٥ ـ ١٩٦) واللسان مادة كسع.

بل إننا نجد في الأمم الكافرة اليوم في أمريكا وأوربا وغيرها أن من يحملون لواء الدعوة إلى الله يجدون من يستجيب لهم من الكفار، وفي مراكز كثيرة كانوا يذكرون لنا إحصائيات الذين يسلمون أسبوعيًا ـ فكانت بالعشرات من الرجال والنساء.

وهذه الحقيقة التاريخية الواقعية، التي تثبت أن كل جهد له ثمرة هي أيضًا حقيقة شرعية:

﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مُؤمن فلا كُفران لسعيه وإنّا له كاتبون﴾ . (سورة الأنبياء، الآية: ٩٤). **﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾** . (سورة الأحزاب، الآية: ٢٤).

«من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»(١).

«من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة..»(٢).

فكل عمل له جزاء، وكل داع له أتباع.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤) والترمذي (٢٦٧٦) وأبو داود (٤٦٠٩) جميعهم من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم (١٠١٧) والنسائي (٢٥٥٤) كلاهما من حديث جرير بن عبدالله البجلي.

ثالثا: التواضع

وهو معرفة المرء قدر نفسه، وتجنب الكبر الذي هو بطر الحق وغمط الناس. كما قال ﷺ، فيما رواه مسلم وغيره.[1].

والتواضع في الأصل إنما هو للكبير الذي يخشى عليه أن يكبر في عين نفسه فيقال له:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ
على صفحات الماء وهو رفيع

أما الإنسان العادي فلا يقال له: تواضع، وإنما يقال له: **اعرف قدر نفسك، ولا تضعها في غير موضعها!**

روى الخطابي في العزلة أن الإمام الفذ عبدالله بن المبارك قدم خراسان فقصد رجلاً مشهورًا بالزهد والورع، فلما دخل عليه لم يلتفت إليه الرجل ولم يأبه به، فخرج من عنده عبدالله بن المبارك، فقال له بعض من عنده:

* أتدري من هذا؟!

---

(١) رواه مسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩) وأبو داود (٤٠٩٢).

* قال: لا.

* قال: هذا أمير المؤمنين في الحديث.. هذا.. هذا.. هذا.. عبدالله بن المبارك فبهت الرجل وخرج إلى ابن المبارك مسرعًا يعتذر إليه ويتنصل مما حدث وقال:

* يا أبا عبدالرحمن اعذرني وعظني!

* قال ابن المبارك:

* نعم.. إذا خرجت من منزلك فلا يقعن بصرك على أحدٍ إلا رأيت أنه خير منك!

وذلك أنه رآه معجبًا بنفسه، ثم سأل عنه ابن المبارك فإذا هو حائك!![1].

لقد لمح الإمام المربي أن في هذا المتزهد نوعًا من الكبرياء والغطرسة والاستعلاء على الناس.. وهو داء يسرع إلى المتعبدين أحيانًا.. فزوده بهذه النصيحة التي تلائم حاله.

وكم نجد من بعض الصالحين، وربما الدعاة أحيانًا، بل ومن صغار الطلبة من يسيئون الأدب مع شيوخهم وعلمائهم وأساتذتهم. وإنه لأمر يحز في النفس ويؤلمها!

(١) العزله (٢٢٠).

لا حرج أن تختلف مع عالم أو داعية في رأي أو اجتهاد متى كنت أهلاً لذلك.. لكن الحرج كل الحرج أن يتحول هذا الاختلاف إلى معول لهدم مكانة هذا العالم، والحط من قدره، والازراء عليه، وسوء الأدب معه.

وإن جاز أن يقع هذا من الدهماء والعامة، أو من أهل البدعة والضلالة فإنه لا يجوز بحالٍ أن يقع من أهل السنة ومن طلاب علم الشريعة:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

إنَّ علماء أهل السنة والجماعة خاصة مطالبون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحتساب على علية القوم.. وإذا خذلهم أقرب الناس إليهم فلا ينتظر منهم ذلك، فواحدهم كفارس شجاع ما خلفه إلا نساء!

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم
نطقت ولكن الرماح أجرت!

ولو أن أهل السنة حموا أعراض علمائهم، وعرفوا لهم قدرهم، والتفوا حولهم لأمكن لهم أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه الصحيح، لكن لما

خذل العالم من وراءه لم يستطع أن يقول شيئًا.

وكم هو مؤسف أن بعض أهل البدع على النقيض من ذلك، بل تصل الحال بهم إلى أن يمنحوا شيوخهم وملاليهم وسادتهم نوعًا من القداسة، ويسيرون خلفهم بشكل مرفوض.. هو في الحقيقة نوع من العبودية وذوبان التابع في المتبوع.

وهذا ديدن الفرق الباطنية عبر العصور حيث تربي أفرادها على منح قدر من «العصمة» لزعمائها وأئمتها.

وحتى المعتزلة الذين يتعاطون بضاعة «العقل»، ولا يكاد يوجد عندهم للعواطف مكان.. يقول أحد شعرائهم في شيخهم واصل بن عطاء:[1]

له خلف بحر الصين في كل بلدة
إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر

(١) قال الذهبي في الميزان (٤/٣٢٩) واصل بن عطاء البصري الغزَّال المتكلم البليغ المتشدق الذي كان يلتغ بالراء.. قلت ـ الذهبي ـ كان من أجلاد المعتزلة وكان يتوقف في عدالة أهل الجمل ويقول إحدى الطائفتين فسقت لأبيعنها فلو شهد عندي عائشة وعلي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم.

رجال دعاة لا يفلّ عزيمهم
تهكم جبّار.. ولا كيد ماكر
إذا قال مروا في الشتاء تسارعوا
وإن جاء حرٌّ لم يخف شهر ناجر
هم أهل دين الله في كل بلدة
وأرباب فتياها وعلم التشاجر

وأهل السنة أولى بأن يقدروا ويوقروا علماءهم، ولا خير في أمة لا يُوقِّر صغيرها كبيرها، ولا يرحم كبيرها صغيرها.

* ومن التواضع، بل من معرفة قدر النفس ألا ينظر الشاب المبتدىء إلى نفسه على أنه ندٌّ لهذا العالم أو ذاك، ويقول: هم رجالٌ.. ونحن رجال!!

والحال أن الرجولة تختلف.. فإن صفة الرجولة في القرآن الكريم سيقت مساق المدح في مواضع عدة:

﴿فيه رجال يُحبون أن يتطهروا﴾. (سورة التوبة، الآية: ١٠٨).

﴿في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغُدوّ والآصال، رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾. (سورة النور، الآيتان: ٣٦ - ٣٧).

وقد يعبِّر بالرجولة عن الفحولة والذكورية فحسب كما في مواضع أخرى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجالٍ من الجن﴾. (سورة الجن، الآية: ٦).

فالرجال ليسوا سواء، وأين الثَّرى من الثُّريا؟!

ولــربــما رأيت طويلب علمٍ لا يحفظ من القرآن إلا اليسير، ولا يكـاد يحفظ حديثًـا من البخـاري أو مسلم بحـروفه، فضلاً عن سنده ومعناه.. ومع هذا قد يقف أمام جهابذة العلماء وكأنه أبو حنيفة أو الشافعي! وهجيراه أن يقول: أرى، وأنا، وقلت، وعندي!

يقــولــون: هذا عنــدنــا غير جائــز!!

ومــن أنــتــم حتــى يكــون لكــم «عــنــدُ»!!

* ومن التواضع أن يتواضع المرء مع أقرانه، وكثيرًا ما تثور بين الأقران والأنداد روح المنافسة والتحاسد، وربما استعلى الإنسان على قرينه، وربما فرح بالنيل منه، والحطّ من قدره وشأنه، وعيّبه بما ليس فيه، أو تضخيم ما فيه، وقـد يظهـر ذلـك بمـظهـر النصيحـة والتقـويم وإبـداء الملاحظات، ولو سمى الأمور بأسمائها الحقيقية لقال: الغيرة.

والعجب أن يغار الداعية من اجتماع ألف أو ألفين في مجلس علم أو دعوة لكنه لا ينفعل لو سمع أن حفلاً غنائيًّا أو مباراة رياضية حضرها عشرون أو ثلاثون ألفًا، وهذا والله من البؤس، حتى لو كنت لا ترضى من أخيك بعض الأمر، يكفيك أنه يدعو إلى الله، ويعلم الناس الدين، وهو على الجادة إجمالاً:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟
كفى المرء نبلاً أن تُعدّ معايبه

وقد يكون الحق معه في بعض ما انتقدته عليه.

* ومن التواضع: التواضع مع من هو دونك، فإذا وجدت أحدًا أصغر منك سنًا، أو أقل منك قدرًا فلا تحقره، فقد يكون أسلم منك قلبًا، أو أقل منك ذنبًا، أو أعظم منك إلى الله قربًا.

حتى لو رأيت إنسانًا فاسقًا وأنت يظهر عليك الصلاح فلا تستكبر عليه، واحمد الله على أن نجاك مما ابتلاه به، وتذكر أنه ربما يكون في عملك الصالح رياء أو عجب يحبطه، وقد يكون عند هذا المذنب من الندم والانكسار والخوف من خطيئته ما يكون سببًا في غفران ذنبه.

عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حـدّث «أن رجـلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك»[1].

فلا تستكـبر على أحد، وحتى حين ترى الفاسق فلا تستعلِ عليه، أو تعامله بأسلوب المتسلط المستكبر.

ولـو شعر الناصح الداعية أنه قد يكون لهذا الفاسق طاعات ليست عنده، وأن عنده هو عيوبًا قد لا تكون عند صاحبه لعامله برفق، وتلطف معه في الدعوة مما يرجى أن يكون سببًا في القبول والذكرى.

* ومن التـواضـع ألا يعـظم في عينك عملك، إن عملت خيرًا، أو تقربت إلى الله تعالى بطاعة، فإن العمل قد لا يقبـل، و﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (سورة المائدة، الآية: ٢٧). ولهذا قال بعض السلف: لو أعلم أن الله قبل مني تسبيحة لتمنيت أن أموت الآن!

*ومن ذلك التواضع عندما تسمع نصيحة، فإن الشيطان يدعوك إلى ردّها، وسوء الظن بالناصح، لأن معنى النصيحة

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١).

أن أخاك يقول لك: إن فيك من العيوب كيت وكيت:

وكم مرة أتبعتكم بنصيحتي
وقد يستفيد البغضة المتنصح!

أمّا من عصمه الله تعالى فإنه إذا وجد من ينصحه ويدلّه على عيوبه قهر نفسه، وقبل منه، ودعا له وشكره.

ولهذا قال ﷺ، في تعريف الكبر: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1].

يعني: ردّ الحق، وبخس الناس أشياءهم.

فالمستكبر صاحب نفسية متعاظمة لا يكاد يمدح أحدًا أو يذكره بخير، وإن احتاج إلى ذلك شفعه بذكر بعض عيوبه.

أما إن سمع من يذكّره ببعض عيوبه فهيهات أن ينصاع أو يلين، وما ذاك إلا لمركب النقص في نفسه، ولهذا كان من كمال الإنسان أن يقبل النقد والملاحظة بدون حساسية أو انزعاج أو شعور بالخجل والضعف وها هو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحمل الراية، ويرفع الشعار:

رحم الله امرءًا أهدى إلينا عيوبنا

* * *

(١) سبق تخريجه ص (٢٩)

رابعا: العـدل

والعـدل لفظ عام يعني التـوسط الـذي هو سمـة المسلمين، وسمة أهل السنة والجماعة في الأمور كلها دون استثناء، وهو إعطاء كل ذي حق حقه، ومجالات العدل وصـوره كثيرة جدًّا ليس من الميسور حصرها، لكن هذه بعض النماذج المهمة منها:

أ - العدل مع العدو والصديق:

فالكثير من الناس إذا ذكر له صديقه أثنى عليه ولو كان يعلم أنه لا يستحق ذلك الثناء، وإذا ذكر له خصمه ذمّه ولو كان يعلم أنه خلاف ما يقول.

فهـل يستـطيع الداعية أن يذكر العيوب الموجودة في أقرب الناس إليه ممن يكون مثله في المنهج والطريقة؟! أو يكون شريكًا له في عمل ما؟!

وهل يستطيع أن يثني بصدقٍ على إنسان يختلف معه في بعض الأمور؟

إن كان يستطيع ذلك فقد حقق العدل في هذا الجانب، ولكن أكثر الناس يجورون على خصومهم فيذمونهم بما ليس فيهم، ويجورون أيضًا على أصدقائهم فيمدحونهم بما ليس فيهم. . وهذا وإن كان مظهره مظهر المحبة والثناء إلا أن حقيقته الجور والذم، فمن أثنى عليك بما ليس فيك فقد ذمّك، لأن الناس يتطلبون هذه الخصلة فيك فلا يجدونها فيذمونك على فقدها والله تعالى قد أمرنا بالعدل حتى مع الأعداء فقال: ﴿ولا يجرِمنَّكم شنآنُ قومٍ على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (سورة المائدة، الآية: ٨) ومن المحزن أننا وإن سلّمنا بذلك نظريًّا، إلا أننا من الناحية العملية سرعان ما ننسى هذا الدرس، فحين نقف على ما نعدّه - نحن - خطأ من فلان نسقطه من الحساب، ولا نعبأ به، ولا نلتفت إليه، وكثيرًا ما تنسينا محاسن الشخص الكثيرة عيوبه القليلة، أو تنسينا عيوبه الكثيرة محاسنه القليلة.

لا بل الأمر أدهى وأمر!

ولعل الحقيقة أنه كثيرًا ما تنسينا العيوب القليلة

المحاسن الكثيرة. . وننسى القاعدة الشرعية «**إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث!!**»[1].

ب ـ العدل في تقويم الكتب:

فحينما تقوّم كتابًا فليس من العدل أن تقول إنه يحوي أحاديث موضوعة أو ضعيفة ـ مثلًا ـ أو آراء شاذة، **فتذكر هذا الجانب المظلم، وتنسى جانبًا آخر موجودًا في الكتاب** وهو أنه يحوي توجيهات مفيدة، أو أبحاثًا علمية.

إن ذكرك لنصف الحقيقة وإهمال النصف الآخر منها **ليس من الأمانة.**

والكثير من الناس بمجرد أن يرى خطأً في كتاب ما يحذَره ويحذّر منه، لأنه ساق حديثًا ضعيفًا، أو أخطأ في مسألة، ولو عاملنا كتب أهل العلم بهذا المقياس ما بقي لنا كتاب.

صحيح البخاري ـ وهو أصحّ الكتب بعد كتاب الله تعالى ـ هل حاز على الكمال المطلق؟ **كلّا**، فقد بيض لبعض المواضع، لم يضع تحت بعض الأبواب أحاديث،

(١) نص حديث رواه أحمد وأهل السنن وصححه الطحاوي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي والنووي وابن حجر. انظر إرواء الغليل (١ / ٦٠).

فيه أحاديث معلقة غير موصولة، وفي بعض روايات الصحيح اختلاف.

ولا يخلو كتاب بعد كتاب الله من النقص والخطأ، فلا ينبغي أن نذكر عيوب كتابٍ ومثالبه، إلّا ونذكر إلى جانبها محاسنه ما كانت له محاسن.

جـ ـ العدل في الحكم على الدعوات والحركات:

منذ سقوط الخلافة الإسلامية قامت في العالم الإسلامي دعوات وحركات كثيرة تهدف إلى استئناف الحياة الإسلامية والحكم الإسلامي، أو إلى استمرار الدعوة بين غير المسلمين، أو إلى إحياء السنة، أو ما شابه ذلك من الأهداف النبيلة.

وهذه الدعوات تختلف في منهاجها وأسسها وأهدافها، وتختلف في قربها أو بعدها عن منهج الكتاب والسنة.

وقد تحدث كثيرون عن هذه الدعوات ودرسوها من جوانب مختلفة، والأمر الذي تكاد أن تفقده في كثير من هذه الدراسات هو «العدل»، فكثير من الكتاب ما بين منتمٍ لهذه الدعوة، معجب بمناهجها وطرائقها فهو يكيل لها المَدح كيلاً، ويدعي وصلاً بليلى! وآخر متحامل عليها

لا يرى فيها إلا كل نقيصة، وبين هذا وذاك تضيع الحقيقة.

والله تعالى يحب العدل، ويكره الجور، ومن قصّر في جانب فلا يلزم أن يكون مقصرًا في كل جانب، ولا يسوغ أن تنسيك سيئاتهم الكثيرة حسناتهم القليلة.

أحيانًا تسمع البعض يتحدث عن فئة من الدعاة إلى الله فيحولهم إلى مجموعة من الشياطين حتى يفسّر نطقهم بالشهادتين تفسيرًا يصرفه عن معناه المباشر الظاهر، ويؤول تصرفاتهم تأويلاً قد يصدق في بعضها ولا يصدقها في كثير منها، والتعميم في هذا الموضع خطأ، بل يجب لمن تصدى للحديث عن الدعوات ومناهجها التفصيل والدقة وضبط العبارة وذكر الجوانب المشرقة إلى جوار الجوانب المعتمة.

وأئمة أهل السنة والجماعة كانوا يذكرون أهل البدعة فيذمونهم ويحذرون منهم، لكنهم يذكرون مع ذلك مقاماتهم في الرد على من هو أشد منهم بدعة، أو في دعوة بعض الكفار إلى الدخول في الإسلام، بحيث يتحولون من كفار إلى مسلمين مبتدعين، وهذا خير من بقائهم على الكفر الصريح بلا ريب، أو في ردّ بعض هجمات الأعداء

العسكرية، أو في أعمال خيرية قاموا بها.

فمن العدل ألا نتجاهل بدعتهم بحجة أنهم أحسنوا في أمور، كما لا نتجاهل حسناتهم بحجة أنهم أصحاب بدعة، بل نجمع بين الأمرين.

د - العدل في النظر إلى الجهود والأعمال الدعوية:

هناك جهود في ميدان الدعوة إلى الله تعالى لا ترتبط بفئة معينة، فهي عمل جهادي أو دعوي تضافرت عليه همم المؤمنين، أو طوائف منهم، وهي جهد بشري يخطئ ويصيب، وليس له من العصمة نصيب، ولذلك فإن من المصلحة الظاهرة أن «تقوّم» هذه الأعمال تقويمًا صحيحًا معتدلاً، يحقق الانتفاع بالإيجابيات وتوسيعها وتعميقها، وتلافي السلبيات والخلاص منها، لئلا تتكرر الأخطاء نفسها ويعود المسلمون من حيث بدؤوا.

ولكن هذه المصلحة الظاهرة قد تضيع بين طرفين:

طرف يرى هذا العمل كاملاً لا عيب فيه، فيرمي بسهام الاتهام والشك كل من يوجه نقدًا أو ملاحظة.

وطرف لا يبصر إلا العيوب، حتى لا يكاد يرى في هذا العمل شيئًا يمكن الانتفاع به!

* خذ مثلاً: **الجهاد الأفغاني**.. جهاد ما يزيد على عشر سنوات من العرق والدمع والدم والتضحية والسهر والعناء!

قد تجد من يصوره على أنه **خال من الأخطاء، بريء من العيوب**، حتى كأنه جهاد الصحابة رضوان الله عليهم، **ولا يقبل فيه النقد والتوجيه والملاحظة**.

وفي المقابل قد تجد من يتحدث عن المجاهدين فيصمهم بالجهل والبدعة دون تروٍ أو تفصيل، ويتعلل بأن منهم من يعلق التمائم!، أو بأن عندهم بدعًا في بعض المساجد، بل تجاوز الأمر أن صرّح أحدهم قائلاً:

هؤلاء مشركون يحاربون ملحدين!

وقرأت بخط أحدهم تعليقًا طائشًا عن إحدى الجماعات السلفية هناك **بأنّ من لم يكفرهم فهو كافر!!**

فإذا كان هذا حكمه على فئة سلفية.. فما بالك بغيرها؟! والله المستعان.

أين ميزان القسطاس الذي وضعه الله لهذه الأمة؟

وهل هذا هو الاتباع الحقيقي لرسول الله ﷺ، الذي كان يعرف للناس أقدارهم، ولا يبخسهم أشياءهم، وكان

يثني على الإنسان بما فيه من خلال الخير ـ إذا كان ثم مصلحة ـ ولو لم يسلم من الأخطاء!

أليس قد أثنى ـ ﷺ ـ على النجاشي، ووصفه بأنه «**ملك لا يظلم عنده أحد**»[1] مع أنه حينها كان كافرًا لم يسلم بعد؟!

إن هناك فئة من الدعاة قد تنظر بعين واحدة، إما بعين الرضا فتنسى العيوب والأخطاء التي تعرف لتُعالج وتُقوّم، وإما بعين السخط التي لا ترى إلا المساويء:

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا!

إذا كان المحبّ قليل حظٍّ
فما حسناته إلا عيوبا!

ويجب أن يتطلع الدعاة إلى الأحكام العادلة التي تمسك الميزان من وسطه وتنظر نظرة معتدلة متوازنة تحرص ألا تتأثر بالعواطف سلبًا أو إيجابًا:

---

(١) رواه ابن اسحاق في السير والمغازي (٢١٣) والبيهقي (٩/٩) وأحمد في المسند (٥/٢٩٠) وإسناده حسن لحال ابن اسحاق.

﴿ولا يَجرمنكم شنآن قومٍ على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾. (سورة المائدة، الآية: ٨).

هـ - العدل في التعامل مع النصوص الشرعية:

وهذه النصوص المحكمة كلها «دين» يجب قبوله وطاعته والإيمان به، وليس شيء منها «مهجورًا» ما دام محكمًا غير منسوخ.

ومن العدل أن تتوازن في النظر إلى هذه النصوص، فلا تأخذ منها نوعًا وتهمل نوعًا آخر، خاصة النصوص الواردة في موضوع واحد، أو في موضوعين متقابلين.

※ هناك من يأخذ نصوص الوعيد كحديث «لا يدخل الجنة قاطع»[1]. أو «لا يدخل الجنة قتات»[2]. أو «كفر بالمرء تبرّؤٌ من نسبٍ وإن دق» أو. أو. ويبنى على ذلك تكفير الخلق بهذه الأعمال ونحوها اعتمادًا على ظواهر هذه

---

(١) رواه البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٦) وأبو داود (١٦٩٦).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥) وأبو داود (٤٧٧١) والترمذي (٢١٢٧).

النصوص وينسى أو يتناسى النصوص الأخرى الواردة في الوعد والرجاء، كحديث عتبان «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»[1]. أو «من شهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا عبدالله ورسوله، وأن عيسى عبـدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حقّ، وأن النار حقّ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[2].

* وفي الطرف الآخر هناك من يعكس المسألة فيأخذ نصـوص الـرجـاء وحدها، ويؤمن الناس من مكر الله، ويغفل نصوص الوعيد.

﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقـولـون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾. (سورة الأعراف، الآية: ١٦٩).

والعدل أن نأخذ بهذا وذاك، ونضع هذه في كفة، وتلك في أخرى حتى يعتدل الميزان ويستقيم.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٣) ومسلم (٣٣).

(١) رواه أحمـد (٥/٣١٤) والبخـاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨) والترمذي (٢٦٤٠).

ومن العدل بين النصوص الشرعية العدل بين **الكليات والجزئيات**، فالدين كلُّه لله، وليس فيه شيء يجوز أن يُهوَّن من شأنه، أو أن يتجاهل أو يهمل، ولهذا قال ﷺ، لما أجاب جبريل عن **الإيمان والإسلام والإحسان**: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»(١)

ولذا لو أنكر الإنسان أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة متواترًا قطعي الثبوت لكان بذلك كافرًا ولو كان هذا الأمر الذي أنكره سنة أو فرض كفاية كركعتي الفجر والأذان ونحوهما.

فليس في الدين «**قشور**» أو «**توافه**» كما يحلو لبعض المتعجلين والهاجمين على القول بدون ثبت ولا روية أن يعبروا.

إنما هناك **أولويات** كالبداءة بأمور العقيدة، **وتقديم الكليات على الجزئيات**، فأنت حين ترى على إنسان مجموعة أخطاء فمن الحكمة أن تبدأ **بالخطأ الأكبر قبل الأصغر**، فليس يسوغ أن تلومه على بعض الأذكار المسنونة

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (١٠٠٩) وأبو داود (٤٦٩٨) والنسائي (٤٩٩٠).

وهو يخل بواجبات الصلاة أو أركانها، وليس يسوغ أن تبدأ معه رحلة النصيحة بنهيه عن التدخين وهو يقع في الشرك.

والتدرج في الدعوة ثابت في وصية النبي ﷺ، لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فقال: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلـك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم.. الحديث»[1].

فتقـديم الأهم فالمهم شريعة نبوية، كانت جزءًا من منهجـه ﷺ، في الدعوة العملية، وهي جزء من وصيته لصحابته المبلغين عنه.

وبعض الدعاة المخلصين قد تتحول عنايتهم وينصب اهتـمامهم على مجمـوعـة مسـائل جزئية، هي مهمة دون

(١) رواه البخـاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩) وأبو داود (١٥٨٤) والترمذي (٦٢٥) والنسائي (٢٤٣٥) جميعهم من حديث ابن ابن عباس

شك، لكن ثمت ما هو أهم منها، وليست مهمة الناصح أن يصرف اهتمام الدعاة عنها بالكلية، أو يزهدهم فيها، كلّا.

بل مهمته أن يعمل على وضعها في مكانها الطبيعي الذي يليق بها، ووضع المسائل الأخرى التي تكبرها في مكانها الطبيعي أيضًا.

كنت يومًا أشرح للطلاب في دروس «بلوغ المرام» حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «إذا أتى أحدكم المسجد فلينظر في نعليه، فإن رأى فيهما أذى فليمسحه وليصل فيهما»(1).

فرأيتها فرصة مناسبة لشرح المنهج المرضي في مثل هذا الحديث.

فأولا: ذكرت السنن الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في مسألة الصلاة في النعلين، وهي إجمالا، خمس:

الأولى أنه ﷺ، كان يتعمد أحيانًا خلع نعليه في الصلاة كما في حديث عبدالله بن السائب: «رأيت النبي

---

(1) رواه أبو داود (٦٥٢).

ﷺ يصلي يوم الفتح ووضع نعليه عن يساره»[1].

الثانية: صلاته ﷺ، **في النعلين** كما في حديث أبي سعيد، ومثله ما رواه أبو مسلمة سعيد بن يزيد الأزدي قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: أكان النبي ﷺ يصلي في نعليه؟ قال: نعم[2].

الثالثة: **أنه كان يصلي حافيًا ومنتعلاً** كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده[3] يعني: **تارةً هكذا**، وتارةً هكذا.

الرابعة: **الأمر بوضع النعلين بين رجليه**، ولا يضعهما عن يمينه ولا عن يساره، إلا أن لا يكون عن يساره أحد، كما في حديث أبي هريرة[4] وغيره.

الخامسة: **الأمر بالصلاة فيهما** كما في حديث شداد بن

---

(١) رواه أبو داود (٦٤٨) والنسائي (٧٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٦) ومسلم (٥٥٥) والترمذي (٤٠٠) والنسائي (٧٧٥).

(٣) رواه أبو داود (٦٥٣).

(٤) رواه أبو داود (٦٥٤ ـ ٦٥٥).

أوس: «**خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم**»[1].

ثم ثنيت بذكر **آراء الفقهاء في المسألة** وهي ثلاثة:

١ - **رأي يقول بالكراهة**، نقل ذلك عن ابن عمر وأبي موسى الأشعري.

٢ - **وآخر يقول بالاستحباب** وهو مذهب الأكثرين كعمر وعثمان وعلي وأنس وابن مسعود وعطاء ومجاهد وطاوس وشريح.. الخ.

٣ - **وثالث يقول بالجواز إذا لم يكن فيها نجاسة**، كما رجحه الخطابي وابن دقيق العيد وابن بطال والنووي وغيرهم، أي: **ليست الصلاة في النعل بمستحبة** عندهم، وزعم ابن دقيق العيد أن ملابسة النعل للأرض التي تكثر فيها النجاسات يقصر به عن أن يكون زينة يستحب أخذها للصلاة.

ثم ثلثت **بالترجيح لما يقتضيه الدليل الصحيح الصريح**. وهو استحباب الصلاة في النعل، على أن يراعى في ذلك أمور:

---

(١) رواه أبو داود (٦٥٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

أ ـ أن ينظر فيها ويطمئن إلى سلامتها من الأذى أو القذر كما أمر به ﷺ، في حديث أبي سعيد.

ب ـ ألا يترتب على ذلك تشويش أو تشويه، فإن رفع الأصوات في المساجد، والجدل العريض، والهجر في المقال، وامتلاء الصدور بالكراهية والبغضاء، والتدابر، بل وترك الصلاة مع الجماعة إمعانًا في التعبير عن الغضب.. كل ذلك قد يفعله بعض الناس ممن كان يحتاج إلى تأليف قلوبهم. وفي بعض المجتمعات يفرح أعداء الدعوة، وأعداء المنهج الصحيح بمثل هذه الأعمال، ويستغلون جهل الناس بالسنة ليلصقوا بالدعاة التهم الباطلة، وينفروا الناس منهم.

جـ ـ ضرورة ترتيب الأولويات، فنحن نريد تصحيح عقائد الناس، وتحذيرهم من ألوان الشرك الظاهر والخفي، ونريد حمل الناس على فعل الفرائض والواجبات، والامتناع عن المحرمات، كما نريد حثهم على الالتزام بالسنن والمستحبات، وترغيبهم في تجنب المكروهات. وليس يصحّ في النظر السليم أن أصرّ على تعليم الناس سنة من السنن مهما كلف ذلك من جهد، لتكون النتيجة

أن يرفضوا هذه السنة بجهلهم، ثم يرفضوا من دعاهم إليها فلا يقبلوا منه صرفًا ولا عدلاً.

وسلّم الأولويات الشرعية يبدأ بتعليم أصول العقيدة، ثم فعل الفرائض وترك المحرمات، ثم أداء السنن وترك المكروهات، وهي كالضروريات، ثم الحاجيات، ثم التحسينيات.

* وباختصار: نحن بحاجة إلى «**درء التعارض**» بين العناية بالكل، والعناية بالجزء، وإزالة الفكرة الكاذبة التي توحي بأن الاهتمام بالكليات يلزم منه إهمال الجزئيات، أو العكس، وأن نجمع اهتمام الدعاة على نسق واحد، يعطي كل ذي حق حقه.

وليس عيبًا أن يدرس الداعية أو يدرّس هذه السنن التي ينكرها الناس كتقصير الثياب إلى وسط الساق، أو جلسة الاستراحة في الصلاة، أو تحريك الأصبع في التشهد، **بل هي مسائل ورد فيها نصوص شرعية ينبغي للمتخصص أن** يكوّن منها رأيًا واجتهادًا، شريطة ألا تلهيه عن غيرها، كما يدرّب الشباب على تطبيقها في خاصة أنفسهم وفيمن يقبل منهم ويأخذ عنهم، وفي الأزمنة المناسبة، وفي الأمكنة

المناسبة، ويتركوها - احتساباً لوجه الله - حين يرون المصلحة الشرعية في تركها، وليس خوفاً من ألسنة الناس أو أقوالهم على أشخاصنا.

فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمدٍ منكم وقاء

وليس من العدل أن نكتب في موضوع جزئي ما يزيد على أربعة عشر بحثاً. في حين نترك الوقائع والنوازل الكبيرة في الأمة يسير الناس فيها على غير هدى، ويتخبطون بآرائهم الشخصية، أو باجتهادات ناقصة لم تتوافر فيها آلات الاجتهاد الصحيح.

وهناك من يقع في الخطأ المقابل، فيشتغل ببعض الكليات، ويقلل من شأن الجزئيات.

يقول أحدهم: أنا سلفي، وعندما أنظر إلى شخصية «عمر» أنظر فيها إلى عمر الذي نشر العدل بين الناس، عمر الذي كان يقول: لو عثرت بغلة في العراق لشعرت أن الله سائلني عنها، لَمَ لمْ تسوِّ لها الطريق يا عمر؟

ولست أنظر إلى شخصية عمر الذي يقصِّر ثوبه ويطيل لحيته!! كما ينظر إليه بعض «الصبية!!».

يا سبحان الله!

ولماذا نشطر شخصية «عمر» فنجعل منها «عُمَرين»، عمر العادل المجاهد المتحمل لمسئولية البغلة بالعراق، وعمر الملتزم بالسنة في هيئته وثوبه وعمله؟

حاشا عمر رضي الله عنه، فإنه ما كان يؤمن بهذه «الثنائية» وهذا الانشطار وإليك الدليل:

* لما جاء عقبة بن عامر رضي الله عنه يبشره بفتح الشام، وقد ركب إليه أسبوعًا من الجمعة إلى الجمعة حتى وصل المدينة، وأخبره بالفتح، فكبّر لذلك، وسرّ المسلمون من هذا النصر المؤزر.

ثم نظر عمر إلى خفي عقبة، فقال له: منذ متى لبستهما؟ قال: منذ أسبوع وأنا أمسح عليهما! فقال له عمر: أصبت السنة[1].

والأثر صحيح كما يقول ابن تيمية[2] وغيره.

فلم يكن اشتغال عمر رضي الله عنه بمسألة الفتوح وإخضاع العالم لحكم الإسلام مانعًا له عن بحث مسألة

---

(١) رواه البيهقي (١/ ٣٨٠).

(٢) الفتاوى (٢١/ ١٧٨).

فرعية جزئية ـ في نظر البعض ـ وبيان السنة فيها حسب رأيه واجتهاده.

* وحين كان أمير المؤمنين في فراش الموت كان همّ الخلافة من بعده مما يقلق باله، وبال أصحاب رسول الله ﷺ، ومسألة الخلافة مصلحة عامة جوهرية خطيرة، لكنها ـ على أهميتها ـ لم تشغل عمر عن المباحثة والمفاهمة في بعض الجزئيات، فكان مما فعل ـ وهو طعين ـ أنه دخل عليه غلام من الأنصار، فأثنى عليه خيرًا فلما خرج رأى عمر في ثوبه طولاً، فقال: ردّوا علي الغلام!! فردوه فقال له: يا ابن أخي! ارفع إزارك، فإنه انقى لثوبك وأتقى لربك![1].

وبعد لحظات التفت إلى من حوله من الصحابة فقال لهم: ما تقولون في مسألة إرث الجد مع الإخوة؟ فتحدثوا، فقال عمر: «إني كنت رأيت في الجد رأيًا فإن رأيتم أن تتبعوه فاتبعوه!.

فقال عثمان رضي الله عنه: إن نتبع رأيك فإنه رَشَد، وإن

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠٠) من حديث عمرو بن ميمون.

نتبع رأي الشيخ قبلك فلنعم ذو الرأي كان!![1].

هذا «عمر» رضي الله عنه.

تنسجم عنده الكليات مع الجزئيات في مزيج عذب، لا يطغى فيه لون على لون، ولا طعم على طعم، وفي بناء متكامل لا يغني فيه شيء عن شيء.

و - العدل في النظرة الشمولية للإسلام:

فالدين جاء ليحكم شئون الحياة كلها، على مستوى الفرد والجماعة، وفي الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية وسواها، وقد عاب الله تعالى على بني إسرائيل ووبخهم بقوله:

﴿فنسوا حظًا مما ذكروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾. (سورة المائدة، الآية: ١٤).

فالتحزب على جزء من الدين، ونسيان الأجزاء الأخرى هو من ميراث الأمم الهالكة، ومن أعظم أسباب الفرقة والخلاف بين الدعاة. فتجد طائفة من المسلمين تهتم بالإسلام التعبدي، فتعني بقيام الليل، وكثرة الذكر، وقد

---

(١) رواه الدارمي (٢٩١٦) عن مروان بن الحكم.

تضيف إلى ذلك بعض الترتيبات التي لا أصل لها في الشرع، وربما تسرّب إليها شيء من التصوف العجمي الانعزالي حتى لقد حدثني أحدهم بلهجة المسرور أن أحد الجواسيس الغربيين جلس معهم طويلاً ثم كتب عنهم أن هؤلاء لا ضير منهم، فهم يتحدثون فيما تحت الأرض وفيما فوق السماء!!

تبارك الله!

في القبر والموت والعذاب والنعيم، وفي الله والملائكة والآخرة!

أما ما فوق الأرض فلا شأن لهم به!

وتجد طائفة أخرى تهتم بالإسلام السياسي، فجهادهم هو في ميدان تكوين الأحزاب السياسية، وحشد الأنصار، والفوز بالانتخابات، والدخول في المجالس والبرلمانات.. وتربية الشباب على الجهاد السياسي.

وتجد فئة ثالثة عنيت بالإسلام العلمي، فهي تتعلم السنة والحديث، وتشتغل ببيان صحيحها من سقيمها، وتحذر الناس من رواية الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وقد

يصحب ذلك شيء من الجفاء أو ضعف التعبد أو الغفلة عن واقع الأمة وما يدبر لها.

وقبل أن يسبق إلى ذهن أحد معنى يكرهه أبادر وأقول:

أولاً: الإسلام يشمل الجوانب الثلاثة كلها، وغيرها، فهو دين جاء ليربط العبد بربه تعبدًا ورجاءً وخوفًا، ومن ثم جاءت الشعائر التعبدية، وهو دين جاء ليحكم حياة الناس ويدير شئونهم، فليس كهنوتًا ولا رهبانية، ولا عزلَة عن واقع الحياة، والسياسة جزء لا يتجزأ من الإسلام، فالجهاد في هذا الميدان بكل وسيلة مباحة مؤدية للغرض المقصود يجب أن يكون جزءًا من هم الداعية.

وهو دين جاء ليضبط التعبد، ويضبط الحركة في واقع الحياة، بضابط الكتاب والسنة فلا يكون هناك مجال للعواطف المجردة، ولا للأمزجة الشخصية، فلابد من العلم بالكتاب والسنة حتى نصحح عباداتنا وأعمالنا.

إذن: كل هذه المجالات مما جاء الدين بالدعوة إليه، والحث عليه.

ثانيًا: قد يعجز فرد أو أفراد أن يحيطوا بهذه الأمور كلها

في دعوتهم إلى الله، فالطاقة محدودة إذا صرفت لشيء فربما بخست شيئًا آخر، أو أضرّت به، فضلًا عن أن ما رُكِّب عليه الناس من الطبائع والنظرات ونوعية الاهتمامات قد يجعل الإنسان بطبعه أميل إلى أحد هذه الأمور. فمثلًا قد يكون في الإنسان زهد ونسك وخير كثير، لكنه لم يرزق آلة العلم الشرعي، فليس من أهله.

وهنا نقول: قد علم كل أناس مشربهم، وكل ميسر لما خلق له، وقد كان من أصحاب محمد ﷺ، الفارس المقاتل الشجاع كخالد بن الوليد، إلى جوار العالم المتهجد الفقيه كابن عباس وابن مسعود، إلى جوار المتعبد المتزهد الذي يصيح بالناس قولاً وفعلاً: لا تركنوا إلى الدنيا، كأبي ذر رضي الله عنه.

ومن مجموع هذه الشخصيات وغيرها يتكون البناء الإسلامي المتكامل.

وقد يوجد فيه من يكونون مجمعًا للفضائل ـ وهم قليل ـ وعلى نطاق الصحابة رضي الله عنهم تجد أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم وهم من الصحابة أكثر منهم فيمن جاء بعدهم.

ثالثًا: يجب أن يكمل بعضنا بعضًا، وألا يكون تنوع الاهتمامات مدعاة للتطاحن والتناقض والتنابز واتهام كل طرف للآخر.

فهذا يتهم ذاك بالجهل، وذاك يتهم هذا بالإغراق في بحث الجزئيات والغفلة عن واقع الحال، والثالث يتهم الآخرين بالجفاء والجفاف، والركون إلى الدنيا وهكذا..

كلا.

بل يقول كل مؤمن لأخيه: إنه قام بما قصر فيه هو من فروض الكفايات وسد عنه ثغرة ما كان يستطيع سدّها، ويدعو له بظهر الغيب، ويحمي ظهره من طعن الطاعنين.

فلا «نتحزّب» على جزء من الدين، ونحارب من يهتم بجزء آخر، بل إن قصّرنا في أمر شكرنا من يقوم به عنا، وشتان بين الأمرين.

رابعًا: ويجب ألا يشغلنا ما نذرنا أنفسنا له ـ من علم أو تعبد أو جهاد سياسي أو غير ذلك ـ عن الجوانب الأخرى أن نأخذ منها بنصيب، فليس يسوغ لداعية ـ أيًا كان ـ أن يجهل ما يكون تعلمه فرض عين على كل مسلم، كمعرفة العقيدة الصحيحة، ومعرفة أحكام الوضوء والصلاة

والصيام ونحوها، ومعرفة ما يحتاجه في حياته العملية كآداب المعاشرة للمتزوج، وأحكام الزكاة والتجارة لأرباب الأموال، والأحكام المتعلقة بالعمل أو المهنة كالطب أو الهندسة أو غيرها.

وهذا هو العاصم ـ بإذن الله ـ عن أن يكون اهتمامنا بشيء ذريعة إلى الغلو فيه وترك ما عداه.

فإن العناية بالعبادة إذا لم يصحبها علم شرعي صحيح مبني على الدليل من الكتاب والسنة قد تؤدي إلى التردي في مهاوي التصوف.

والعناية بالدعوة إذا لم تبن على فهم صحيح، ومدارسة للنصوص، وتحصيل علمي قد تؤول إلى جمع الناس على بدعة، أو حشدهم على غير شيء. وهكذا.

ز ـ العدل مع الواقع:

فالبعض من الدعاة يعيش في هذا العصر، وكأنه في القرن الخامس الهجري! لا يعرف عصره، ولا يدري ما يقع حوله، ويفاجأ بالأحداث. كما يفاجأ بها رجل الشارع!

صعد خطيب من الخطباء في إحدى القرى وفي يده كتاب يقرأ منه، فكان مما قال في آخر خطبته أن دعا لأمير المؤمنين السلطان العثماني فلان، أن يخلّد الله ملكه، ويؤبد سلطانه!!

ولم يدر أن جسد هذا الخليفة أصبح طعامًا للديدان في قبره، وأن ملكه أصبح نهبًا للشرق والغرب!

وهذه الصورة «الصارخة» من «الغيبوبة» قد لا تتكرر كثيرًا. لكن ثمت صور ألطف منها تتكرر بصفة دائمة.

أحد الشباب سألني قائلًا: حزب البعث، ما هو حزب البعث؟ ما هي عقائدهم الأخرى غير مسألة الكفر بالبعث؟!

ظن أخي أن سبب تسميته بحزب البعث، لأنه يكفر بالبعث، كما سمّي القدرية لأنهم ينكرون القدر!!

إن المسلم قيّم على عصره، وشاهد عليه، فهو يعيش هموم المجتمع، ويدرك تيارات الفكر واتجاهات السياسة، ويحرص على إيجاد الحلول الصحيحة للوقائع الجديدة، وعلى مقاومة الانحرافات بعد معرفتها وإدراك جذورها،

ولن يستطيع نقض مناهج الفكر الغربي من لا يعي جذورها وظروفها ومنطلقاتها.

وليس من الضروري أن يصبح كل داعية كذلك، لكن لابدّ أن يَنْفُرَ من المؤمنين طائفة ليقوموا بهذه الفريضة، وعلى المستوى العام لابدّ أن يكون للداعية نافذة على الواقع يدرك من خلالها أهم الأحداث المحيطة به، ويستطيع أن يكون مرشدًا للناس إلى السلوك الصحيح حيالها.

وفي مقابل أولئك المنعزلين عن الواقع يوجد من يحوّل هذا النزول للواقع إلى نوع من الانهزامية، والبحث عن المسوغات والمبررات ليقول إن ما عليه للناس موافق للإسلام، أو يحاول التخلي عن بعض الأمور الشرعية مجاملة للواقع، أو خضوعًا لضغطه النفسي.

والعدل هو التعرف على الواقع ومحاكمته إلى دين الإسلام، وتصحيح انحرافاته بحسب الإمكان.

ح ـ العدل في التعامل مع الخلاف:

الخلاف من طبيعة البشر ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾. (سورة هود، الآيتان: ١١٨ ـ ١١٩).

ولا شك أنه يختلف ويتفاوت باختلاف النيات والمقاصد، واختلاف العقول والمدارك، واختلاف العلوم، والتعامل مع الخلاف يتطلب موقفًا شرعيًا. بعض الدعاة يدعو إلى وحدة الصف وجمع الكلمة ونسيان الخلاف دون تحديد ضابط دقيق لمن يمكن الوحدة معه، ومن تجب مفاصلته لبدعته وضلاله وانحرافه.

وفي الطرف الآخر هناك من يبالغ في الشروط، حتى ليريد من الناس أن يوافقوه في كل شيء، حتى في اجتهاداته الشخصية الفردية، وآرائه الخاصة، فإذا خالفه أحد في بعض ذلك أعرض عنه، واتخذ منه موقف المناوىء، وأصبح لا يأبه به ولا يقيم له وزنًا!

والعدل يقتضي تقبل الخلاف فيما يسوغ الخلاف فيه كالوسائل الدعوية، والفرعيات، والأحكام التي اختلف فيها السابقون.. ونحو ذلك مما بني على اجتهاد شرعي في فهم النصوص، لا على مجرد الميل والتشهي.. فمثل هذا يحتمل، ويكون الأمر فيه واسعًا.

أما التسامح مع أهل البدع الاعتقادية الغليظة، والانحرافات الجوهرية بحجة توحيد الصف فمسلك

تلفيقي لا يمتّ إلى العقل ولا إلى الشرع بصلة.

وأما مطالبة الناس بالاتفاق على كل شيء، وألا يختلفوا في شيء البتة فضرب من المحال والخيال، لا يتصوّر إلا في عقول السذّج.

* * *

خامسا: العاطفة الحية

نحن بحاجة إلى داعية يملك قلبًا يحترق على واقع الإسلام والمسلمين وعلى أوضاع الأمة في مشارق الأرض ومغاربها، يعطف على إخوانه ويحقق قوله سبحانه ﴿أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم﴾. (سورة الفتح، الآية: ٢٩). ولا يكون شأنه شأن الخوارج في الدهر الأول الذين يقتلون أهل الإيمان ويدعون أهل الأوثان.

إن المؤمن ينبغي أن يكون شديدًا على الكفار رحيمًا بالمؤمنين ويحقق في نفسه قوله ﷺ، «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[١].

وقوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٥) والترمذي (١٩٢٩) جميعهم من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) كلاهما من حديث النعمان بن بشير.

فنحن بحاجة إلى من يحس بآلام إخوانه المسلمين، فإذا سمع بمصيبة حلت بإخوانه تألم لهم ولو كان لديهم بعض التقصير والابتداع.

كان الشيخ محمد رشيد رضا يتألم لواقع المسلمين وتظهر أحزانه على قسمات وجهه حين تحل بأحد المسلمين مصيبة أو قارعة، ويفرح إذا كان الأمر على العكس من ذلك حتى إن والدته عرفت عنه هذا الخلق فإذا رأته حزينًا كاسفًا سألته مالك يا ولدي: أمات اليوم مسلم بالصين؟ فهي قد أدركت أن أحزان ابنها وأفراحه مربوطة بأحوال المسلمين يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم وهذا هو الولاء الحقيقي للمسلمين.

* ومن هذه العاطفة أن يملك الإنسان قلبًا يتأثر لأخطاء المسلمين وانحرافهم عن الدين، فيحزن لانتشار الفسق والمعاصي بينهم حزنًا لا يدفعه لاعتزالهم إنما يدفعه لأن يشعر أنه كالطبيب معهم يحاول إنقاذهم فإن لم يدرك ذلك كله فليقلل من هذا الانحراف بقدر ما يستطيع.

وينبغي أن تدعوه هذه العاطفة للغيرة على نفسه وزوجه وولده فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر

ويمنعهم من ارتكاب ما يسخط الله عز وجل.

كثيرون هم الدعاة الذين يتحدثون عن الإسلام لكن الـذي يملك عاطفـة حقيقية حية قلة من هؤلاء، وإذا تحركت العـاطفـة في قلب الداعية أثمرت دعوة ونصيحة ومشـاركـة لآلام المسلمـين في كل مكان. أما حين يفقد الإنسان هذه العاطفة فيُصبح يعيش لنفسه وولده وزوجه، يعيش ليستمتع ويتلذذ بما حوله وينسى هموم المسلمين فإنه حينئـذ يكـون قد تخلى عن حقيقة الولاء للمؤمنين، وإن دنـدن في أحـاديث حول الـدعـوة والـدعـاة، ومصـائب المسلمين، و.. و.. **إلا أنه يكون كالنائحة المستأجرة.**

ومـا أكـثـر الـذين تعـودوا على كلام يرددونـه في المناسبات.. وحفظوا عبارات يسمعونها ويتلونها دون أن تنطلق من حماس وغيرة على الدين وأهله..

فآهٍ لهذه الأمة.. ما أحوجها إلى قلوب تحترق!

* * *

سادسا: الطموح

ويعني هذا الخلق أن لا يعيش الإنسان لنفسه ودنياه إنما يعيش لأمته كما كان ﷺ، إذ تقول عنه عائشة لما سألها عنه عبدالله بن شقيق رضي الله عنه هل كان النبي ﷺ، يصلي وهو قاعد؟ قالت: «نعم بعدما حطمه الناس»(١). فقد كان ﷺ، يتصدى للناس يستقبلهم، ويودعهم، يأمرهم وينهاهم يختلط بهم ويتحمل أخطاءهم لذلك حطمه الناس وأثّروا في بدنه ﷺ، حتى أصبح يصلي جالسًا وأسرع إليه الشيب بأبي هو وأمي ﷺ.

* والدين مراتب فالإسلام ثم الإيمان والإحسان يقابل هذه القسمة قسمة ثلاثية أيضًا وهي الواردة في سورة فاطر ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك

---

(١) رواه أحمد (٦/١٧١، ٢١٨) ومسلم (٧٣٢) وأبو داود (٩٥٦).

هو الفضل الكبير﴾. (سورة فاطر، الآية: ٣٢). ويناظر هذه القسمة قسمة ثلاثية أيضًا ذكرها النبي ﷺ، في حديث الفرقة الناجية حيث ذكر الإسلام أولاً وهو الضمانة الوحيدة في الدخول إلى الجنة فلا يدخل الجنة إلا مسلم وداخل هذه الدائرة الكبرى وهي دائرة الإسلام دائرة أضيق وهي دائرة الفرقة الناجية وتشمل من التزموا بالسلوك المستقيم والعقيدة الصحيحة ولم يقوموا بما وراء ذلك. وهناك دائرة ثالثة أضيق من هذه الدائرة وهي أفضل وأشرف وأعظم وهي دائرة الطائفة المنصورة الذين يذُبّون عن الدين وينافحون عنه ويتحملون الأذى واللأواء في سبيله فينصرهم الله جل وعلا.

فينبغي أن يكون المسلم طموحًا ويسعى للارتقاء في هذه الدرجات وأن ينظر في الدين إلى من هو فوقه وفي الدنيا إلى من هو دونه. فحاول أن تتشبه بالفضلاء والمصلحين والمجددين حتى يتحقق لك بعض الخير في هذه الدنيا كن صاحب نفس طموحه لا ترضى بالوقوف عند حدّ معلوم، ولا تشبع من خير قطّ حتى يكون منتهاك الجنة.

وختاما

ينبغي للداعية أن يكون قدوة لغيره بأن يتجنب المكروهات وفضول المباحات ومالا يحتاج إليه، ويترفع عن الدنيا والتنافس فيها حتى يكسب ثقة الناس، والأمر كما قال الشافعي:

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها
وسيق إلينا عذبها وعذابها
فما هي إلا ضيعة مستحيلة
عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلمًا لأهلها
وإن تجتذبها نازعتك كلابها

فمن المهم للداعية أن يجعل الدنيا تحت قدميه يستخدمها ولا يخدمها حتى يعلم الناس أنه ليس صاحب دنيا ولا طالب مكانة.

ومن مجالات القدوة أن يتجنب الداعية التناقض بين القول والعمل كما قال نبي الله شعيب ﴿وما أريد أن

أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.
(سورة هود، الآية: ٨٨).

ولذلك كان علماء السوء يدعون الناس إلى الإسلام بأقوالهم ويحذرون منه بأعمالهم، فاحرص أخي الداعية أن تكون قدوة في قولك وعملك.

* وها هنا أمر ينبغي التنبه له وهو أن الكثير من الناس يظن أن الداعية لا يأمر إلا بالمعروف الذي يفعله ولا ينهى إلا عن المنكر الذي يجتنبه وهذا غلط بل الصحيح الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة أن الإنسان يجب عليه أن يأمر بالمعروف ولو كان مقصرًا فيه وأن ينهى عن المنكر ولو كان واقعًا فيه حتى قال بعض حذاق أهل العلم حق على من يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضًا.

فالوقوع في المنكر لا يبرر لي الوقوع في خطأ آخر وهو أن لا أنهى عن المنكر، والشرط الوحيد أن يكون أمري بالمعروف ونهيي عن المنكر بصدق وليس على سبيل الخداع والنفاق والتضليل وأن أظهر للناس أني داعية، وأنا لست كذلك. فلو كان الوالد مثلاً مبتلى بشرب الدخان ورأى

ولده يدخن فهل يسكت عنه بحجة أنه واقع في المنكر؟ كلاّ. بل عليه **أن** ينهاه ويقول: إني سلكت هذا الطريق ويصعب عليَّ الإقلاع وأنت مازلت في البداية وهكذا سائر المعاصي.

وقل مثل ذلك في مسئول يرى من تحته يقع في معصية هو واقع فيها.

ولــو لم يعظ في الــنــاس من هو مذنــب
فمــن يعظ الــعــاصــين بعــد محمــد

وتقتضي القدوة ألا يقابل الداعية السيئة بالسيئة بل يعفو ويصفح ويقابل الإساءة بالإحسان كما كان ﷺ، **يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، وهذه أخلاق الأنبياء.**

جعلنا الله وإياكم هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، وعاملنا بفضله ورحمته، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

سلمان بن فهد العودة

الفهرس

١ ـ بدون مقدمات	٧
٢ ـ لأتمم مكارم الأخلاق	٨
٣ ـ مسلم وداعية	١٠
٤ ـ وهذه منها	١٢
أولا : الصدق	١٣
ثانيًا : الصبر	٢١
ثالثًا : التواضع	٢٩
رابعًا: العدل	٣٨
خامسًا: العاطفة الحية	٦٨
سادسًا: الطموح	٧١
وختامًا	٧٣

معهد العلوم الإسلامية والعربية في سطور

* تأسس المعهد سنة ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٩م في واشنطن ، وهو سادس معهد لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية خارج المملكة العربية السعودية .

* يهدف المعهد إلى :-

١- توفير أسباب التعليم الجامعي والعالي والمستمر في العلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية .

٢- تعليم اللغة العربية للراغبين في تعليمها والعمل على نشرها في المجتمع الأمريكي وبين الوافدين إليه .

٣- التعاون مع الجهات والمراكز والجامعات المعنية بالدراسات الإسلامية واللغة العربية في أمريكا وغيرها بما يعين هذه الجهات على نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية .

٤- إجراء البحوث والدراسات الخاصة بالعلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية والإفادة من منجزات الحضارتين الإسلامية والغربية .

٥- تعريف المجتمع الأمريكي بالحضارة الإسلامية والعربية ، والعمل على التبادل المثمر بينها وبين الحضارة الأمريكية .

٦- تعزيز التبادل العلمي بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية .

٧- جعله مركزاً ثقافياً واجتماعياً للطلاب السعودين وغيرهم من المبتعثين للدراسة والتدريب في الولايات المتحدة الأمريكية وملتقى لهم للإفادة من رجال العلم والتعليم وغيرهم ممن يزورون أمريكا .

* يضم المعهد قسمين للدراسات الإسلامية واللغة العربية ومراكز للبحث والترجمة والحضارة والتراث الإسلامي والإعلام والنشر وتقنيات التعليم والمكتبة والحاسب الآلي .

Institute of Islamic and Arabic Sciences in America
3500 Hilltop Road, Fairfax, VA 22031 U.S.A.